مصطلح الطبع في القرآن الكريم

وعلاقته بالختم والران والأكنة والغلف والأقفال

مقرر مقياس التفسير الموضوعي، النوع الثالث: المصطلح القرآني دراسة موضوعية، مقرر سنة ثالثة كتاب وسنة، المحاضرة (12)،
إعداد الدكتور: مصباح موساوي.

معنى الطبع، أسباب الطبع، طرق تجنب الطبع، نتائج الطبع على القلوب.

أولا: المعنى اللغوي

أ ـ المعنى اللغوي:

أصل مادة (ط ب ع) تدل على معنيين:

الأول: نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها.

والثاني: طبع الإنسان وسجيته، أي: ما طبع عليه الإنسان في مأكله ومشربه، وسهولة أخلاقه وحزونتها، وعسرها ويسرها، وشدته ورخاوته، وبخله وسخائه.1

وقيل: إنّ أصل الطبع: الصدأ، والوسخ، والدنس، يكثر على السيف وغيره، ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرهما من المقابح.2

وقال الراغب» :الطبع: أن تصوّر الشيء بصورة مّا، كطبع السّكّة، وطبع الدّراهم، وهو أعم من الختم وأخص من النقش، ومنه قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ المنافقون :٣.

وبه اعتبر الطّبع والطبيعة التي هي السجية، فإن ذلك هو نقش النفس بصورة مّا، إمّا من حيث الخلقة، وإمّا من حيث العادة، وهو فيما ينقش به من حيث الخلقة أغلب .3

ب ـ المعنى الاصطلاحي:

الطبع اصطلاحًا :أَثَرٌ يثبت على الشيء بعد إحكام غلقه وسده، ويكون لازمًا له، لكيلا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء .5

و(الطَّبَعُ) بتحريك الباء: الدنس، وقد حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ النحل :١٠٨ ، على ذلك، ومعناه: دنّسه، ومن ذلك أيضًا: طبع الله على قلب الكافر؛ كأنه ختم عليه حتى لا يصل إليه هدى ولا نور، فلا يوفق لخير.6

قال ابن عاشور: الطبع : إحكام الغلق بجعل طين ونحوه على سد المغلوق بحيث لا ينفذ إليه مستخرج ما فيه إلا بعد إزالة ذلك الشيء المطبوع به، وقد يَسِمُون على ذلك الغلق بِسِمَة تترك رَسْمًا في ذلك المجعول، وتسمى الآلة الواسمة طابَعًا- بفتح الباء .7

والطبع: أثر يثبت في المطبوع ويلزمه فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم؛ ولهذا قيل: طبع الدرهم طبعًا، وهو الأثر الذي يؤثره فلا يزول عنه.8

والقلب اصطلاحًا: هو محل النفس والعقل والعلم والفهم والعزم. وسمي قلبًا لتقلبه في الأشياء بالخواطر والعزوم والاعتقادات والإرادات.9

وعرفه الجرجاني فقال» :هو لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، ويسميها الحكيم :النفس الناطقة، والروح باطنه، والنفس الحيوانية مركبة، وهي المدرك، والعالم من الإنسان، والمخاطب، والمطالب، والمعاتب .10«

والطبع على القلوب: كناية عن بلوغها مستوى من القسوة وجفاف عواطف الخير، فهي لا تتأثر ببيان، ولا تستجيب لموعظة. فكأنها بيوت مقفلة مطبوع عليها، أو قطعة من المعدن قد علاها الصدأ فغشاها .11

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (من ترك ثلاث جمع تهاونًا بها، طبع الله على قلبه)، 12، أي: ختم عليه وغشاه ومنعه ألطافه .13

ج ـ الطبع في الاستعمال القرآني:

وردت مادة (طبع) في القرآن (١١) مرة .14

الفعل الماضي: ورد ست مرات، منها قوله تعالى: (ذلك بأنهم ءامنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم)، المنافقون: 3.

الفعل المضارع: ورد خمس مرات: منها قوله تعالى: (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)، غافر: 35.

الألفاظ ذات الصلة:

الختـــــــــــــتم

الختم لغة : الخاء والتاء والميم أصل واحد، وهو بلوغ آخر الشيء، وكثيرًا ما يفسر الختم بالطبع؛ لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره .16 وقيل: الختم :هو التأثير في الطين ونحوه.17

الختم اصطلاحًا:

قال الكفوي: الختم في الاصطلاح: قريب من (الكتم) لفظًا لتوافقهما في العين واللام، وكذا معنى؛ لأن الختم على الشيء يستلزم كتم ما فيه .18 والختم: أصله في الحسيات، ومنه ختم الكتاب بالطين لتأمين إيصاله دون فض، واستعمل بتوسع في الختم المعنوي، ومنه الختم على القلوب.19

الصلة بين الختم والطبع:

لم يفرق اللغويون بين الختم والطبع، قال ابن منظور: الختم على القلب: أي: أن لا يفهم شيئًا ولا يخرج منه شيء كأنه طبع. وفي التنزيل العزيز : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ البقرة :٧؛ هو كقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ النحل :١٠٨ . فلا تعقل ولا تعي شيئًا 20، وقال الدامغاني: إنّ ختم كطبع .21

وقال الزجاج: معنى ختم في اللغة وطبع معنى واحد، وهو التغطية على الشيء، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء .22

وفرّق العسكري بين الختم والطبع بقوله : إن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه، فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم، ولهذا قيل: طبع الدرهم طبعًا، وهو الأثر الذي يؤثره فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل: طبع الإنسان؛ لأنه ثابت غير زائل . وقيل: طبع فلان على هذا الخلق إذا كان لا يزول عنه.23

وفرّق ابن القيم بين الختم والطبع فقال :قلت: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجيّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق 24، وبهذا يشير إلى أن الطبع أشد من الختم.

الـــــــــــــران

الران لغة :

يقال: «الرّان والرّين» وهما لغتان، ويرجع معناه إلى الغلبة والرسوخ، قال أبو عبيدة : غلب على قلبه.25

وقيل: إنّ أصل الرين: الطبع والتغطية، يقال: ران الذنب على قلبه يرين رينا وريونا: غلب عليه وغطاه 26، وإلى ذلك ذهب الزجاج.27

الران اصطلاحًا : هو الطبع والدنس والصدأ، يغشى القلب ويغطيه من توالي الذنوب وكثرتها، ومنه قوله تعالى) :﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين:١٤.

وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذكر فيه) الران)، ومعنى الآية: أي صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشر .28 وقال الحسن ومجاهد: هو الذنب على الذنب، حتى تحيط الذنوب بالقلب، وتغشاه فيموت القلب .29

الصلة بين الران والطبع :

قال مجاهد: الرين أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله.30

وقال ابن الأثير: كانوا يرون أن الطبع هو الرين .31 وقال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يسود القلب من الذنوب .والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، وهو الختم. قال: والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب.32

وقال الزجاج : يقال: ران على قلبه الذنب يرن رينا، إذ غشي على قلبه .«قال» :والرين، كالصدأ يغشى القلب.33

قال ابن القيم: وأما الرين والران: فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها .34

وقيل: إن الختم والطبع والرين ألفاظ تجري على شيء واحد، وهو: تغطية الشيء والحيلولة بينه وبين ما من شأنه أن يدخله ويمسه .35، وإلى ذلك ذهب بعض اللغويين، قال ابن منظور: إنّ معنى «ران» في الآية: أي غلب وطبع وختم، وبنحوه قال ابن الأثير .36

الأكـــــــــــــنة

الأكنة لغة : من الكنّ: وهو وقاء كل شيء وستره، والجمع أكنانٌ، قال الله تعالى :﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ النحل :٨١.

والأكنّة جمع (أكنان): مفردها: كنان، وتعني: الأغطية. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الأنعام :٢٥ .37

الأكنة على القلوب اصطلاحًا :

هي غطاء محكم على القلب يمنع الفهم ويحجب الهداية، وهي بهذا المعنى تتشابه مع معنى الطبع على القلوب، وقال الزجاج في قوله تعالى :﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ فصلت :٥ . [أي: في غلف، أي: ما تدعونا إليه لا يصل إلى قلوبنا لأنها في أغطية .38

وقال الراغب: في معنى قوله تعالى) :﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ فصلت : ٥، أي: في غفلة من هذا، وقيل: معناه: قلوبنا أوعية للعلم. وقيل: معناه: قلوبنا مغطاة .39

الصلة بين الأكنة والطبع :

قال الراغب: إنّ الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل، أو ارتكاب محظور، ولا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق، يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، وكأنما يختم بذلك على قلبه، وعلى ذلك قوله تعالى﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ النحل :١٠٨.

وعلى هذا النحو استعارة الكنّ في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الأنعام :٢٥، فجعل معنى الأكنة يقوم مقام الختم والطبع.40

الغلـــــــــــــــــف

الغلف لغة: قال ابن فارس: إن مفردة غلف تدل على غشاوة وغشيان شيء لشيء، وقلب أغلف: كأنما أغشي غلافًا، فهو لا يعي شيئًا. قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ١٥٥.

وقرأت: (غلف)، أي: أوعية للعلم . والقياس في ذلك كله واحد .41 وقيل في معنى: غلف، أي :صم .42 وقيل أيضًا في تفسيرها: أي: في غطاء محجوبة عما تقول.43

الغلف اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي، من حيث إنه غشاء وغطاء يحجب القلب عن الإيمان .وتتفق دلالة الغلف مع دلالة الأكنة ويتشاركان المعاني نفسها، إلا إن بينهما فرقًا دقيقًا، وهو أن معنى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الأنعام :٢٥ ، أي: مجموعة أغطية وأستار، واحدًا تلو الآخر حتى يحجب عنها الفهم والهداية والإيمان؛ بدلالة صيغة الجمع، وأما (غلف) وورودها بالصيغة نفسها، فتعني: أن هذه القلوب غطيت وأغشيت بأغلفة، وكأن القلب صار غلاف لنفسه، ولذا نجد الجملة مع الغلف استغنت عن حرف الجر، بعكس الأكنة حيث عديت بحرف الجر .

الصلة بين الغلف والطبع :

وجه التشابه في المعنى في قوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ١٥٥، فهما يشتركان في المعنى من حيث عدم الانتفاع بالآيات والنذر؛ لإحاطة هذه القلوب بأغلفة وأغطية تمنع من وصول الإيمان، فقلوبهم لا تفقه علمًا، ولا تعي حقًّا، ويتفارقان من حيث الشدة، فالطبع أشد أثرًا في القلب من الأكنة والغلف .

ومن دلائل تقارب المعاني بين الغلف والطبع اقترانهما في سياق واحد كما في قوله تعالى في وصف قلوب الكفار: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء :١٥٥.

فذكر المفسرون فيه وجهين: أحدهما : أن غلفًا (جمع غلاف، والمعنى على هذا أنهم قالوا: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ، أي: أوعية للعلم، فلا حاجة بنا إلى علم سوى ما عندنا، فكذبوا الأنبياء بهذا القول. والثاني: أن غلفًا (جمع أغلف وهو المتغطي بالغلاف، أي: بالغطاء، والمعنى على هذا أنهم قالوا: قلوبنا في أغطية، فهي لا تفقه ما تقولون44، فكان الجواب من الله تعالى بقوله: ﴿ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء :١٥٥ .[فجاء بلفظ الطبع كنتيجة وعقاب وخاتمة، فهي ليست مغلفة بطبعها .إنما كفرهم جرَّ عليهم أن يطبع

الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلًا، ممن لم يستحق بفعله، أن يطبع الله على قلبه.45

الأقفـــــــــــــــــال

الأقفال لغة: جمع قفل، قال ابن فارس: القاف والفاء واللام أصل صحيح يدل على صلابة وشدة في شيء، ومنه القفل :سمي بذلك؛ لأن فيه شدًّا وشدة. يقال: أقفلت الباب فهو مقفل 46، ثم عبّر عن كلّ مانع للإنسان من تعاطي فعل، فيقال: فلان مقفلٌ عن كذا. وقيل للبخيل: مقفل اليدين، كما يقال: مغلول اليدين.47

الأقفال اصطلاحًا:

لفظ يستعار لمنع وصول الحق والإيمان إلى قلوب الكفرة والمنافقين المخبر عنهم بالختم. قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، محمد :٢٤.

والمقتفل من الناس: الذي لا يخرج من بين يديه خيرًا.48

الصلة بين الأقفال والطبع:

الأقفال أشد أنواع الطبع على القلوب، قال مجاهد لما ذكر الرين والطبع قال: والإقفال أشد ذلك كله .49 والأقفال: تحول بين القلوب وبين القرآن وبينها وبين النور، فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور .50 ويستلزم لإزالة هذه الأقفال تدبر القرآن الكريم فهو يزيل الغشاوة ويفتح النوافذ لدخول الإيمان، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد :٢٤.

وفي مقام الألفاظ ذات الصلة بالطبع على القلوب يقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة واصفًا الطبع والختم والران والأكنة والغلف والأقفال: إنّ من فطرة الإنسان إذا هو عاند وأصر على الباطل بعد معرفة الحق المبين، وأعلن تكذيبه وكفره بالحق، أن يصاب قلبه بالصمم، وأن يتبلد حسه تجاه الحق والخير، فإذا ألقي عليه الهدى أعرض عنه، ولم يستمع إليه، ولم يدرك جوانب الحق فيه، ولم يتحرك وجدانه وضميره بعاطفة إيجابية نحو الخير، ويكون كالصخر الأصم الذي لا يقبل ندى معرفة، ولا يندى بعاطفة، فإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من القسوة وجفاف عواطف الخير، فإنه يكون مغلف القلب، مسدود المنافذ، محجوبًا بحجاب غليظ، حتى يكون بمثابة البيت الذي أغلق بابه، وضرب عليه بالأقفال، ثم ختمت الأقفال بطابع الطين أو الشمع، إشعارًا بوصولها إلى غاية إقفالها أو بمثابة المعدن الذي يعلوه الصدأ حتى يغشيه تغشية تامة، ويحجبه حجبًا كاملًا، وهذا هو الران الذي يغشّي قلوب الكافرين المكذبين.51

ثانيا: أسباب الطبع

إن للطبع على القلوب أسبابًا كثيرة ومتنوعة قد يغفل عنها الإنسان، وقد ذكرها القرآن الكريم وبينها ووضحها مقرونة بالطبع والختم وما شابههما من المعاني، فالإنسان حين يعرض عن منهج الله والحق ويقترف الذنوب والمعاصي فسيمرض قلبه ويصيبه العمى والفساد، وتنكت فيه نكتة بعد نكتة، عندئذ يغلف ويحجب عن الهدى فلا يدرك الحق ولا يبصره، فيكون القلب منكوسًا مغلقًا لا تنفعه الآيات والنذر؛ لذا فإن معرفة أسباب الطبع في ضوء القرآن الكريم مهمة جدًّا للمسلم من أجل الحفاظ على قلبه السليم من أن يصيبه الران ويطبع عليه فيموت هذا القلب عن الوعي والسماع والفهم. ومن بين هذه الأسباب الكفر والنفاق، والعناد والتكبر والعدوان والجبروت، واتباع الهوى والشهوات، وعدم الانتفاع بآيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، وسنعرض لها في المطالب الآتية.

1 - الكفر والنفاق:

لا شك أن من أهم أسباب الطبع على القلوب (الكفر والنفاق) والعياذ بالله، فهما الداء العقيم والشر المستطير، وإذا داوم عليهما الإنسان ختم على قلبه بالكفر والنفاق فلا يعي حقًّا، ولا يهتدي طريقًا، ولذلك لما ذكر الله تعالى في أوائل سورة البقرة صفات المؤمنين أتبعهم بصفات الكافرين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة :٦.

فكان جزاء كفرهم بالله تعالى وبآياته أن قال:﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ البقرة :٧ . أي: ختم الله على قلوبهم بالكفر .52

ثم إن الكافر لا يرعوي عن ضلالته لما سبق من شقاوته، وقد حكم الحقّ سبحانه بأن لا يفارق قلوب أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة، ولا يدخلها شيء من البصيرة والهداية. وقد وردت آية سورة البقرة ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، فكان أن طبع الله على قلوبهم مجازاة لهم بكفرهم .53

قال الرازي في مناسبة الآية :إنه لما بين الله تعالى في الآية الأولى أنهم لا يؤمنون أخبر في هذه الآية بالسبب الذي لأجله لم يؤمنوا، وهو الختم، فكان الختم مانعًا لهم من الإيمان، والختم عبارة عن حصول الداعية القوية للكفر المانعة من حصول الإيمان، فعند حصول الداعية الراسخة القوية للكفر، صار القلب كالمطبوع على الكفر، وقال الحسن: الطبع عبارة عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحد الذي كأنه مات عن الإيمان، فكما أن الإيمان حياة القلب فالكفر موته.54

2 ـ العناد والكبر:

ومن أسباب الطبع على القلوب، العناد والتكبر والتكذيب وعدم الإيمان بالله والرسول والطغيان، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ ، يونس :٧٤.

قال ابن عطية: إنهم بادروا رسلهم بالتكذيب كلما جاء رسول ثم لجّوا في الكفر وتمادوا، فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم، وقال بعض العلماء: عقوبة التكذيب الطبع على القلوب... وهم الذين تجاوزوا طورهم واجترحوا ما لا يجوز لهم وهي هاهنا في الكفر.78

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يونس :٧٤ يقول تعالى ذكره: كما طبعنا على قلوب أولئك فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبلون من أنبياء الله نصيحتهم، ولا يستجيبون لدعائهم إيّاهم إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوب واكتسبوا من الآثام، كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربّه، فتجاوز ما أمره به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربّهم من هؤلاء الآخرين من بعدهم .79

وقال الشنقيطي: إن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم: أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك إنما جعلها عليهم جزاء وفاقًا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل، والإعراض عن آيات الله باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك.80

ومعنى الاعتداء في الآية: أي أنهم لم ينظروا في آيات الله تعالى، وكفروا بما نزل إليهم من منهج، فهم أصحاب السبب في الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض. وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه.81

وترتب على إعراضهم عن الإيمان عنادًا واستكبارًا الطبع على القلوب، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم :٥٩.

أي: مثل ذلك الختم وحجب الخير والحق يختم الله على قلوب الجهلة الذين لا يتعلمون ولا يعلمون حقيقة الآيات البينات في القرآن المجيد، لسوء استعدادهم، وإصرارهم على تقليد الأسلاف، واعتقاد الخرافات.82

وفسر الاعتداء في الآية: أنه الظلم مع العناد والمجاوزة عن الحد الذي جعل .83 وقيل: معناه: الشرك ومجاوزة الحلال إلى الحرام.84

وأما السبب الآخر للطبع على القلوب فهو «الكبر»، قال تعالى واصفا المتكبر والجبار والمجادل بالباطل: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ غافر :٣٥.

أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين، فكذلك يطبع على قلب كل متكبر جبار، فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بغير حق، وقرئ بتنوين قلب، فما بعده صفته. ووصف القلب بالتكبر والتجبر؛ لأنه منبعهما.85

قال الطبري في معنى الطبع على القلب المتكبر : كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله أن يوحده، ويصدّق رسله. (جبار) يعني: متعظم عن اتباع الحقّ .86

وقال الماتريدي: ويطبع الله على كل من تعود التكبر والتجبر على الآيات والرسل.87

قال الزمخشري: وقرئ: قلبٍ 88، بالتنوين. ووصف القلب بالتكبر والتجبر، لأنه مركزهما ومنبعهما.

وإن كان الآثم هو الجملة. ويجوز أن يكون على حذف المضاف .أي: على كل ذي قلب متكبر، تجعل الصفة لصاحب القلب .89

وقيل: أي: بمثل هذا الطبع والختم على قلب المتكبرين والجبارين، من فرعون وقومه- يطبع الله على قلب كل متكبر جبار من أهل الشرك، الذين يلقون محمدًا بالشك والارتياب والتكذيب.90

وقيل في معنى الآية: ويتجبرون على الضعفاء بالإذلال والتسخير، والإهانة والقتل بغير حق .

قال الشعبي وغيره: لا يكون الإنسان جبارًا حتى يقتل نفسين. وقال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق. وقال مقاتل: «متكبّرٍ» عن قبول التوحيد جبّارٍ في غير حق. فهو في الأول يعادي الله، وفي الثاني يقسو على خلق الله .91

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).92

3 ـ اتباع الهوى والشهوات:

ومن الأسباب التي توجب الطبع والختم على القلب اتباع الهوى والشهوات والشبهات .فالهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة، والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء. وإن وقع الهوى في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء، ومخالفة السنة. فما قارن الهوى شيئًا إلا أفسده، وهو يسري في القلب والأعضاء سريان السم في القلب والأعضاء .93

والهوى: هو ميل النفس إلى الشهوة. وسمي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية .94 ولم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه.

والهوى قسمان: الأول: هوى الشبهات، والثاني: هوى الشهوات، فأما القسم الأول فهو أشد القسمين خطرًا؛ إذ ربما ترتّب عليه الخروج من الإسلام، وصاحبه بعيد عن التوبة؛ لأنه يعتقد أنه على صواب وهو ليس كذلك. وقد أخبر سبحانه وتعالى أن اتباع الهوى يضل عن سبيله فقال: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦ ﴾ ص :٢٦.95

وأخبر سبحانه وتعالى في موضع آخر أنه باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ محمد :١٦.

وجعل الله سبحانه وتعالى متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن فقال تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾ الفرقان :٤٣.

قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه، وقال أيضًا: المنافق عبد هواه لا يهوى شيئًا إلا فعله.96

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية :٢٣ ومعنى ذلك: أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شيئًا إلا ركبه، لأنه لا يؤمن بالله، ولا يحرّم ما حرّم، ولا يحلّل ما حلل، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به .97 وقيل : أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه.98

فهذا فريق من الناس قد اتخذ إلهه هواه، فهو يعبد أهواء نفسه، فيطيعها في أوامرها ونواهيها، ويسارع في تحقيق مطالبها وشهواتها، ولو كان في ذلك أذاه وضرّه وهلاكه، ومن اتخذ إلهه هواه فقد ضل سواء السبيل، ومن ضل بجنوحه واتباعه أهواء نفسه أضلّه الله، فحكم عليه بالضلال حكمًا مبينًا على علم بواقع حالة الضال، وإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من الضلال واتباع الهوى قسا قلبه، وران عليه ما كسب من إثم، فحجب عن إدراك الحقائق الدينية الربانية، وغلّف بغلاف شامل، وختم على هذا الغلاف، وكان شأن أدوات المعرفة لديه كشأن قلبه، فيختم على سمعه أيضًا، فلا يستمع إلى نصيحة، ولا يتقبل موعظة من مواعظ الهداية الربانية، ويجعل على بصره غشاوة، فلا يرى آيات علم الله وحكمته وعدله المنبثّة في الوجود.99

قال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار .100 وقال ابن عباس: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه101، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۡۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، الأعراف :١٧٦.

وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ الكهف :٢٨.

وثبت في الحديث الصحيح عن حذيفة بن اليمان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أُشْرِبها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًّا؛ كالكوز مجخيًّا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه .102

وروي عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله .103

إن التعبير القرآني يرسم نموذجًا عجيبًا للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب وحين تتعبد هواها، وتخضع له، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها. وتقيمه إلها قاهرًا لها، مستوليًا عليها، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول. يرسم هذه الصورة ويعجّب منها في استنكار شديد أفرأيته؟ إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب! وهو يستحق من الله أن يضله، فلا يتداركه برحمة الهدى. فما أبقى في قلبه مكانًا للهدى وهو يتعبد هواه المريض، ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية :٢٣.

على علم من الله باستحقاقه للضلالة، أو على علم منه بالحق، لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذه إلهًا يطاع. وهذا يقتضي إضلال الله له والإملاء له في عماه؛ ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية :٢٣.

فانطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة للهوى طاعته العبادة والتسليم؛ ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية : ٢٣.104

وجملة القول : إنّ من سننه تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله، ويستمرّ على ذلك ويدمنه الزمن الطويل، تضعف إرادته في هواه حتى تذوب وتفنى فيه، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلب، والصمم والعمى والبكم.105

4 ـ عدم الانتفاع بآيات الله في الآفاق:

ومن أسباب الطبع على القلوب عدم الانتفاع بآيات الله تعالى. سواء كانت هذه الآيات منظورة في الكون الفسيح أو مسطورة في القرآن الكريم كقصص الأمم السالفة. وقد أرشد الله تعالى الناس إلى التأمل والتفكر والتدبر ليقيم الحجة على خلقه بآياته الكونية - الأفقية والنفسية-، لذا نجده سبحانه وتعالى في كتابه الكريم يكثر من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وكيفية تبدل الضياء بالظلام وبالعكس، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وأمر بالنظر في ملكوت السماء والأرض وبالتفكر فيهما.

وإن من أعظم أسباب الضلال عدم تدبر القرآن وترك التفكر في حال الرسول وعدم النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٥، إنّ القلب محل التدبر والتفكر بآيات الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد : ٢٤.

أي: بل على قلوب أقفال تمنع من التدبر والتفكر، وبه يتدبر آيات الله الكونية الخلقية في الآفاق وفي الأنفس، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ الحج :٤٦.

فبيّن سبحانه وتعالى أن المعتبر في الانتفاع بالآيات الخلقية والكونية في الأنفس والآفاق عقل القلوب وإبصارها.

قال الطبري: أفلم يسيروا هؤلاء المكذّبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذّبي رسل الله الذين خلوا من قبلهم، كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكّروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنة الله فيمن كفر وعبد غيره وكذّب رسله، فينيبوا من عتوّهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحقّ، حجج الله على خلقه وقدرته على ما بيّنا، أو آذان تصغي لسماع الحقّ فتعي.106

وذكر الزمخشري لطيفة في هذه الآية حيث قال: قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف، ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: «الذي بين فكيك» تقرير لما ادّعيته للسانه وتثبيت؛ لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة وسهوًا، بل تعمدنا ذلك تعمدًا.107

لقد أظهر الله تعالى اليأس من إيمانهم، لأن القلوب قد عميت، فلا تبصر الدلائل الكونية، ولا البراهين العقلية فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ الحج :٤٦.108

ومما يؤكد ضرورة العناية بالقلب أنه هو المطية التي يقطع بها العبد سفر الآخرة، فإن السير إلى الله تعالى سير القلوب لا سير الأبدان. يقول الحافظ ابن رجب: الاعتبار بلين القلوب وتقواها وتطهيرها عن الآثام فسفر الدنيا ينقطع بسير الأبدان وسفر الآخرة ينقطع بسير القلوب. وقال بعض العارفين: إن سير القلوب أبلغ من سير الأبدان. كم من واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت، وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالمحل الأعلى.109

فمجرّد سماع القصص، ورؤية الآثار، والعلم بالأمم الخالية التي عوقبت لإعراضها، لا خير يرجى من ذاك ما لم يكن معه عبرة توصل إلى التوبة والتقوى؛ لذا بيّن تعالى أنّ العمى الضّارّ هو عمى البصيرة؛ لأنّها قوة فقه العبر، والنفاذ إلى المغزى، والتيقّن من الحق، والطمأنينة بالمعاينة القلبيّة؛ لذا بعدها يكون التذكر؛ لقوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ ق :٨.

فالتبصّر آلة البصر، والتذكرة آلة الذكر، وهما للعبد المنيب التائب، فيبصر مواقع الآيات، ومحال العبر؛ فيزول عنه العمى والغفلة فيتذكر؛ لأنّ التبصّر يوجب حصول صورة المدلول بعد الغفلة عنها، فيتذكّر فيكون من أولي الألباب، وهم أعلى من أولي الأبصار؛ لذا قيل: إن الله يحب ذا البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

ومما تقدم نخلص إلى أنّ البصيرة خصّت بالعبرة، واللّبّ خصّ بالتذكّر، فالبصيرة نورٌ في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الحج :٤٦.

فأمر بالسياحة في الأرض، وتأمّل آثار الأمم الغابرة، وما حلّ بها بعد أن عمرت في الأرض قرونًا، فذكر ما يتكامل به الاعتبار؛ لأنّ الرؤية لها حظٌّ عظيم في الاعتبار، مع الاستماع لقصص من مضى، ولكن لا يكمل الأمر إلاّ بالتدبّر بالقلب، وعقل ذلك؛ بأن يعقل التّوحيد بما حصل له من الاستبصار والاعتبار.110

ثالثا: طرق تجنب الطبع

من المعلوم أن قلب المرء هو منطلق أعماله، فبصلاحه تصلح الأعمال عند الله وتزكو، وبفساده تفسد ولا ينتفع بها، ومن ثم فإن من فقه المرء ورجاحة عقله أن يحرص على سلامة قلبه ويجنبه دنس الشرك والآثام والذنوب، ولابد للمسلم أن يسلك الطرق التي تجنبه الطبع على القلوب لا سيما عندما تشرئب الفتن ويعظم الجهل بدين الله. وسنتحدث في المطالب الآتية عن أهم طرق تجنب الطبع والختم على القلوب، ومنها: الاستجابة لدواعي الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم. ومعرفة الله تعالى والبصيرة في الدين. والانتفاع بآيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، ومن ثم الاعتبار بالمصائب والمحن والشدائد فهي تمحص قلب المؤمن وتميز الخبيث من الطيب، لذلك ينبغي للمسلم أن يعرف هذه الطرق والوسائل كي يتجنب الطبع على قلبه .

1 ـ الاستجابة لدواعي الحق:

إن من أسباب شفاء القلوب من مرضها وتجنب الختم والطبع عليها الاستجابة لأوامر الله تعالى وما أنزله الله في كتابه.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ الحديد :١٦.

فذكر الله تعالى وقراءة القرآن الكريم وتدبره والعمل بمقتضاه، تنجي القلب من قسوته وتجنبه الطبع والران الذي يصيبه.

قال ابن القيم رحمه الله: القرآن حياة القلوب، وشفاء لما في الصدور، فبالجملة لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر، والتفكر، وهذا الذي يورث المحبة والشوق، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والرضى، والتفويض، والشكر، والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب، وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب، وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها .111

وقال الحافظ ابن رجب: وفي الآية إشارة إلى أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها بوابل القطر فهو قادر على إحياء القلوب الميتة القاسية بالذكر، عسى لمحة من لمحات عطفه ونفحة من نفحات لطفه وقد صلح من القلوب كل ما فسد .112

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال: ٢٤.

2 ـ معرفة الله والبصيرة في الدين:

أما السبب الثاني من أسباب شفاء القلوب وصلاحها وحياتها وصحتها وتجنب الطبع أو الختم عليها هو أن يستقرّ فيها معرفة الله تعالى وعظمته، ومحبته وخشيته والإنابة إليه. قال سعيد بن إسماعيل رحمه الله: صلاح القلب من أربع خصال: التواضع لله، والفقر إلى الله، والخوف من الله، والرجاء لله .119

ومعرفة الله سبحانه وتعالى تكون بالقلب والعقل معًا، فالتفكر في مخلوقات الله يكون بالعقل، ثم ينتقل من دائرة العقل إلى دائرة اليقين بالقلب، وقد قرنت الآيات القرآنية التفكر في خلق السماوات والأرض - وهذا يكون بالعقل - بالتوجه القلبي لذكر الله وعبادته فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران :١٩٠ ـ١٩١.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة.120

3 ـ لزوم التقوى والعمل الصالح:

ومن أوجه التقوى: تنزيه القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى، ألا ترى في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ النور :٥٢.

فالملاحظ هنا أن الله تعالى ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلم بهذا أن حقيقة التقوى بمعنى غير الطاعة والخشية، وهي تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق منك مثله .136

وأما المعنى الاصطلاحي للتقوى فقد عرفها العلماء بتعاريف عديدة فمن ذلك قال الإمام ابن القيم رحمه الله : وأما التقوى: فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به، إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالناهي وخوفًا من وعيده .137 وقال الإمام ابن عطية: التقوى: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.138

4 ـ الانتفاع بآيات الله في الآفاق والأنفس

ومن الأسباب الأخرى التي تؤدي إلى شفاء القلوب من أمراضها وتمنع الطبع عليها الانتفاع بآيات الله في الآفاق والأنفس، إذ إن التفكر في مخلوقات الله تعالى والتدبر والتأمل في كتاب الكون المفتوح، وتتبع قدرة الله المبدعة وهي تحرّك هذا الكون، وتقلب صفحاته من شأنه أن يجعل القلب دائم الصلة بالله، فيملؤه بالخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والاستسلام لله عز وجل.

إن التفكر والانتفاع بآيات الله في الآفاق والأنفس ومعرفة الله عزوجل، إنما ينشأ من توجيه القلب إلى الله تعالى وإيقاظه لرؤية آلائه، أمام هذا الخلق الهائل العجيب، من خلال رؤية مخلوقاته، وعجائب قدرته وبديع صنعه، ورؤية آثار رحمته ومظاهر قدرته، وقوته وبطشه في إهلاك الظالمين على مرّ القرون والأزمان .160

وآيات الله في الآفاق والأنفس، تعدّ بابًا واسعًا من أبواب الإيمان الحق بالله تعالى، وطريقًا إلى خشيته وطاعته، فالباحث في العلم يوقن، والمتأمل في الكون يشعر حينما يقرأ آيات القرآن الكريم المتعلقة بخلق الكون والإنسان، يوقن بأن القرآن الكريم مستحيل أن يأتي به بشر، ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت :٥٣.

إن القرآن الكريم يدعونا إلى التأمل والتدبر والنظر في آيات الله تعالى في عالم الطبيعة والخلق -آفاق الكون وأغوار النفس- ويعد هذا النظر والتفكر جديرًا بأهل الفكر والألباب وأصحاب الضمائر الحية والقلوب السليمة، وكثيرًا ما تأتي اللفتات الكريمة في القرآن الكريم إلى آيات الله وعظيم صنعه، وكريم لطفه وإحسانه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة:١٦٤.

5 ـ الاعتبار بالمصائب والمحن:

ومن أسباب شفاء القلوب من مرضها وتجنب الطبع عليها هو الاعتبار بالمصائب والمحن التي تمرّ بها القلوب عند الشدائد، إذ إنّ للقلوب أهمية عظيمة عند الشدائد والمحن، وينبغي للمسلم أن تكون تصرفاته صحيحة غير طائشة، بل يجب أن تكون منضبطة بنور شريعة الإسلام، ولابد لنور القلوب أن يشعشع في قلوب المسلمين أوقات الشدائد.

فالمؤمن الذي يريد أن يتجنب الطبع على قلبه لا بد له أن يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها، وعلى تقديرها ووقوعها يرضى بها؛ لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، فعند وقوعها لا يستعظمها، بل تكون له عبرة يتعظ بها، بخلاف الجاهل فإنه يكون غافلًا عن تلك المعارف فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه، بخلاف قلب المؤمن الذي يكون دائمًا منشرحًا بنور معرفة الله تعالى، والقلب إذا كان مملوءًا من هذه المعارف، لم يتّسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا، وسيكون قلبه سليمًا من جميع أمراض القلوب، أما قلب الجاهل فإنه خال من معرفة الله تعالى، فلا جرم يصير مملوءًا من الأحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا.

والقلوب السليمة حينما تسمع القصص وترى أثار الأمم الخالية التي عاقبها الله تعالى لإعراضها، حتمًا ستكون هذه المشاهد عبرة لها وموعظة، قال تعالى واصفًا هذه القلوب السليمة : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق :٣٧.

قال ابن زيد في تفسيرها أي: قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم .172 وبين ابن أبي زمنين أن الخطاب هنا هو خاص بقلب المؤمن .173 الذي صرف قلبه إلى التفهم، فهو في حضور دائم مع الله ولا يغفل عنه طرفة عين .

وقال السمرقندي في تفسيره للآية : أي :لمن كان له عقل؛ لأن محل العقل هو القلب .174 فكنى بالقلب؛ لأنه موضعه .

وقال الزمخشري: أي: لمن كان له قلب واع؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له .175

قال يحيى بن معاذ: القلب قلبان، قلب محشّ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة .176

وفسر الرازي هذه الآية بأن المراد: قلب موصوف بالوعي، أي: لمن كان له قلبًا سليمًا أدرك الحقائق وتفكر كما ينبغي، فكأنه تعالى قال: إن في ذلك لذكرى وعبرة لمن يصلح أن يقال :له قلب، وحينئذ فمن لا يتذكّر ولا يتعظ لا قلب له أصلًا، كما في قوله تعالى :﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ البقرة :١٨.

حيث لم تكن آذانهم وألسنتهم وأعينهم مفيدة لما يطلب منها، كذلك من لا يتذكر كأنه لا قلب له، كالجمادات لها صور وليس لها قلوب للذكر ولا لسان للشكر.177

رابعا: نتائج الطبع على القلوب:

للطبع على القلوب نتائج وخيمة ذكرها الله تعالى في كتابه، وهذه العقوبة إنما هي نتيجة لأعمال الإنسان بعد إنذاره وتحذيره، ومعلوم أن قلب الإنسان ينال من الطبع على قلبه بقدر تلوثه بالذنوب والمعاصي، وعلى هذا الأساس فإن الموانع والحجب التي تضرب على القلب تعطل حواس الإنسان كالسمع والبصر، فتمنعه من الإدراك؛ لأن الطبع على القلوب يقترن به الطبع على الاسماع والأبصار؛ لأنها أهم منافذ القلوب، وكأن الله تعالى بهذا الطبع سد عنهم طرق هذه الحواس، فغدوا لا ينتفعون بها: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ الحج: ٤٦.

وكذلك ينتج عن طبع القلوب البقاء على الكفر وعدم الإيمان بالله تعالى، ومن نتائجه أيضًا الجهل وعدم الفهم والعلم، واتباع الهوى والشهوات والإصرار على المنكرات.

1 ـ تعطيل وسائل المعرفة:

إن من أفظع النتائج السلبية والوخيمة التي تحصل بعد الطبع على القلوب هو تعطيل وسائل المعرفة والإدراك من السمع والبصر وغير ذلك، والقرآن الكريم حينما يتحدث عن القلب يصفه بأنه المنظم لكل السلوك البشري والمتحكم بكل تصرفات الإنسان، بل هو المتحكم بكل وسائل الإدراك الأخرى.

فالإبصار لا يتم إلا عن طريقه، والسمع لا يكون إلا بعد إذنه، والتعقل والتفقه لا يكتمل إلا بكون القلب حاضرًا.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٩.

والمعنى أن لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم - والعياذ بالله- من خلقه لهم قلوب لا يتفكرّون بها في آيات الله ولا يتدبرون بها أدلته الوحدانية، ووصفهم بأنهم كالأنعام لإعراضهم عن الحق، وتركهم التدبر، فهم لهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته فيتأملونها ويتفكروا فيها، فيعملوا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك بالله، وآيات الله في الكون فيعتبروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها.187

فالآية القرآنية الكريمة تشير إلى أن وسائل المعرفة من السمع والبصر وغير ذلك قد تعطلّت؛ لأنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم، فصارت عقولهم لا تفكّر في شيء غيره، وتخطط للحصول على الشهوة، وكذلك العيون لا ترى، إلا ما يستهويها، وكذلك الآذان، وكل منهم يرى، غير مراد الرؤية ويسمع غير مراد السمع.

2 ـ عدم الإيمان:

ومن نتائج الطبع على القلوب هو عدم الإيمان بالله تعالى والبقاء على الكفر، فالختم، والطبع، والغشاوة، والقفل، هي عقوبات للكفار والمنافقين في الدنيا، وقعت عليهم بسبب سوء أعمالهم وعدم قبولهم الحق، وهذه العقوبات لم يفعلها الله تعالى بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان، ودعاه إليه، وإنما عاقبه الله بها بعد تكرار الدعوة منه للكفار، وتكرار الإعراض منهم، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع الله على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك.

يقول محمد التويجري: والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان منهم اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية .211

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الأعراف: ١٠١.

فأوضح الله تعالى في هذا النص القرآني أن من سنن كونه الطبع على قلوب الكافرين، فهو نتيجة تحصل بسبب ما يكسب الكافرون بكفرهم وجحودهم من ذنوب، وبسبب طول الأمل عليهم وهم مكذبون.212

3 ـ ثانيًا: عدم الإيمان:

ومن نتائج الطبع على القلوب هو عدم الإيمان بالله تعالى والبقاء على الكفر، فالختم، والطبع، والغشاوة، والقفل، هي عقوبات للكفار والمنافقين في الدنيا، وقعت عليهم بسبب سوء أعمالهم وعدم قبولهم الحق، وهذه العقوبات لم يفعلها الله تعالى بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان، ودعاه إليه، وإنما عاقبه الله بها بعد تكرار الدعوة منه للكفار، وتكرار الإعراض منهم، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع الله على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك.

ثالثًا: عدم العلم والفقه:

لا شك أن الجهل وعدم العلم شر محض على الإنسان، وآثاره وخيمة، ونتائجه خطيرة، فما عبد غير الله تعالى إلا بسبب الجهل وعدم العلم، ذلك أن الجهل يعني: خلو النفس من العلم، فعندما ينتشر الجهل ويغيب الإيمان عن القلوب يصبح الجهل هو المتحكم بالنفس والمتسيّد عليها.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم :٥٨ -٥٩.

هذه الآية أكدت على أن الله تعالى ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل حكيم، من شأنه أن يهدي القلوب إلى الحق، ويرشد النفوس إلى ما يسعدها، فتارة يضرب المثل بآيات الأفاق والأنفس، وتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالأمر والنهي، وتارة بالبشرى والإنذار، وتارة بالاستدلال، ورغم هذا البيان، فإن فريقًا من الجاهلين والغافلين يجحدون بآيات الله تعالى، ويقولون على سبيل التطاول والتبجح، يقول الكفار: ما أنتم معشر المؤمنين إلا متّبعون للباطل بما يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم .228

والحقيقة إن هذا القول الذي صدر منهم إنما هو بسبب جهلهم وبعدهم عن الحق، وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن الجهل نوعان: الأول: عدم معرفة الحق، والثاني: عدم العمل بموجبه ومقتضاه، وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب، فكما أن العلم يوجب نورًا، وأنسًا، فالجهل يوجب ظلمة ويوقع وحشة .229 وهذه الآية تشمل الأمرين كلاهما .

4 ـ الاستمرار والإصرار على إتباع الهوى:

ومن نتائج الطبع على القلوب هو الاستمرار والإصرار على إتباع الهوى، والهوى هو محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه 238، فهو دافع داخل الإنسان يحركه إلى ما يحب ويشتهي. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ النازعات:٤٠.

أي: عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل.239

لذلك فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبته، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة، فكلما ضعف نور الإيمان في القلب كلما كانت الغلبة للهوى .240

وأخبر الله سبحانه وتعالى أن باتباع الهوى يطبع الله على قلوب العباد بقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ محمد :١٦.

المراجع والمصادر

---

1 انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٨٣/٣، لسان العرب، ابن منظور ٢٣٢/٨.
2 انظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة ١٢٥/٢، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٢٢/٣.
3 المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥١٥.
4 انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤٣/٩، مقاييس اللغة، ابن فارس ١٧/٥.
5 انظر: مفردات القرآن، الفراهي ص٣٤٩.
6 انظر: الصحاح، الجوهري ١٢٥٣/٣، مقاييس اللغة ٤٣٨/٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤٩٥/٣.
7 التحرير والتنوير ١٧/٦ - ١٨.
8 الفروق اللغوية، العسكري ص٧٣.
9 انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٤٨٢.
10 انظر: التعريفات ص١٧٨.
11 صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٨٨.
12 أخرجه أحمد في مسنده، ٢٥٥/٢٤، رقم ١٥٤٩٨، وأبو داود في سننه، ٢٨٥/٢، رقم ١٠٥٢، والترمذي في سننه، ٦٣٠/١، رقم ٥٠٠. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢١٨/٤، رقم ٩٦٥.
13 انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١١٢/٣.
14 انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٥، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧١٩.
15 التحرير والتنوير ١٧/٦ - ١٨.
16 انظر: مقاييس اللغة ٢٤٥/٢.

17 انظر: تاج العروس ٤٣٩/٢١ .
18 الكليات، الكفوي ص٤٣١.
19 قواعد التدبر الأمثل، عبد الرحمن حبنكة ص٤٦١.
20 انظر: لسان العرب ١٦٣/١٢.
21 الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٠٦.
22 معاني القرآن وإعرابه ٨٢/١.
23 الفروق اللغوية ص٧٣.
24 التفسير القيم ص١١٥.
25 انظر: مجاز القرآن ٢٨٩/٢.
26 انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٩١/٢، لسان العرب، ابن منظور ١٩٢/١٣ .
27 انظر: معاني القرآن وإعرابه ٢٩٩/٥.
28 المفردات، الراغب ص٣٧٣.
29 انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨٨/٣١.
30 انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ١٢٢/٣.
31 المصدر السابق ١١٢/٣.
32 التفسير القيم، ابن القيم ٥٦٤/١.
33 معاني القرآن وإعرابه ٢٩٩/٥.
34 التفسير القيم ٥٦٤/١.
35 المنار، رشيد رضا ١٢١/١.
36 انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٢٩١/٢، لسان العرب، ابن منظور ١٩٢/١٣.
37 انظر: الصحاح، الجوهري ٢١٨٨/٦، تاج العروس ٦٣/٣٦.
38 انظر: معاني القرآن، النحاس ٢٤٢/٦.
39 المفردات ص٦١٢.
40 انظر: المصدر السابق ص٢٧٥.
41 مقاييس اللغة ٣٩٠/٤.
42 لسان العرب، ابن منظور ٢٧١/٩.
43 انظر: الكليات، الكفوي ص٦٧٣.
44 مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥٩/١١.
45 انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٨٠١/٢.
46 انظر: مقاييس اللغة ١١٢/٥.
47 انظر: المفردات، الراغب ص٦٨٠.
48تهذيب اللغة، الأزهري ١٣٤/٩.
49 النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١١٢/٣.
50 في ظلال القرآن، سيد قطب ٣٢٩٧/٦.
51 انظر: صراع مع الملاحدة ص٣٨٨.
52 انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤١/١.
53 انظر: الكشاف، الزمخشري ٥٠/١.
54 انظر: مفاتيح الغيب ٢٩١/٢.
55 انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨٦/١.
56 المصدر السابق ٨٧/١.
57 انظر: المفردات ص٢٧٥.
58 انظر: المنار، رشيد رضا ١١٨/١.
59 انظر: المصدر السابق ١١٨/١-١٢٠.
60 انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٩٠-٣٩١.
61 المنار ١٢٠/١-١٢١.
62 شفاء العليل ص٩١.

63 التفسير القيم ص٤٥.
64 المصدر السابق.
65 المنار، رشيد رضا ١٥/٦.
66 في ظلال القرآن ٨٠١/٢.
67 انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨١٩.
68 التعريفات ٢٤٥.
69 المنار، رشيد رضا ٢٨/٩.
70 انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣١٢/٥.
71 الجامع لحكام القرآن ١٢٤/١٨.
72 في ظلال القرآن، سيد قطب ٣٥٧٤/٦.
73 التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣٧/٢٨.
74 مفتاح دار السعادة ص١٠١.
75 طريق الهجرتين، ابن القيم ٤٠٣/١ -٤٠٤.
76 انظر: المصدر السابق.
77 انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤٦/٥.
78 المحرر الوجيز ١٣٣/٣.
79 جامع البيان ١٥٤/١٥.
80 انظر: أضواء البيان ٣١١/٣.
81 تفسير الشعراوي ٦١٢١/١٠.
82 التفسير المنير، الزحيلي ١٢٢/٢١.
83 تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧١/٦.
84 تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢٦٨/٢.
85 الوسيط للقرآن، نخبة من علماء الازهر ٦٣٧/٨.
86 جامع البيان ٣٨٤/٢١.
87 تأويلات أهل السنة، ٢٨/٩.
88 في قوله تعالى) :ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ] (غافر:٣٥.[
89 الكشاف ١٦٧/٤.
90 التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢٣٤/١٢.
91 انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١١٨/٢٤ .
92 أخرجه مسلم في صحيحه، ٩٣/١، رقم ٩١.
93 انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٣٠٩٥/٤.
94 انظر: المفردات، الراغب ٨٤٩.
95 انظر: روضة المحبين، ابن القيم ص ٤٠٢.
96 انظر: المصدر السابق ص ٤٧٥-٤٧٦.
97 جامع البيان ٧٥/٢٢.
98 الكشاف، الزمخشري ٢٩١/٤.
99 انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٩٢- ٣٩٣.
100 أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢٤١٩/٧.
101 انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦٧/١٦.
102 أخرجه مسلم في صحيحه، ١٢٨/١، رقم ١٤٤ .
وذكر الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه لقوله: (كالكوز مجخيا) أي: قُلِبَ ونُكِّسَ حتى لا يعلق به خير ولا حكمة .
103 أخرجه أحمد في مسنده، ٣٥٠/٢٨، رقم ١٧١٢٣، والترمذي في سننه، ٢١٩/٤، رقم ٢٤٥٩.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٤٩٩/١١، رقم ٥٣١٩.
104 في ظلال القرآن، سيد قطب ٣٢٣٠/٥.
105 المنار، رشيد رضا ٥٢٩/٩.
106 جامع البيان ٦٥٧/١٨.

107 الكشاف ١٦٢/٣.
108 تفسير المراغي ١٢٣/١٧.
109 انظر: لطائف المعارف، ابن رجب ص٢٥١.
110 حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي، ٥٢٦/١.
111 انظر: مفتاح دار السعادة ١٨٧/١.
112 انظر: لطائف المعارف ص٣١٧.
113 جامع البيان ٤٧١/١٣.
114 انظر: التفسير القيم، ابن القيم ٣٠١/١.
115 انظر: الفوائد ص٨٨-٨٩.
116 انظر: شفاء العليل، ابن القيم ص٣١.
117 أخرجه أحمد في مسنده، ١٦٠/١٩، رقم ١٢١٠٧.
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١٢٦/٥، رقم ٢٠٩١.
118 في ظلال القرآن ١٤٩٥/٣.
119 انظر :حلية الأولياء، أبو نعيم ٢٤٤/١.
120 الفوائد ٢٠/١.
121 أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٧٥.
122 انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٣٤٥٤/٨ .
123 انظر: جامع العلوم والحكم ٢١١/١.
124 أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤٣/٢٠، رقم ١٣٠٤٨.
قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف علي بن مسعدة الباهلي .
125 انظر: جامع العلوم والحكم ٢١١/١.
126 الجواب الكافي، ص٢٣٣.
127 انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٩٨.
128 انظر: مدارج السالكين ١٤٣/١.
129 انظر: لسان العرب، ٦٥/٤.
130 انظر: المفردات ص١٢٧.
131 الكليات ص٢٤٧.
132 الجامع لأحكام القرآن ٢٧٤/٩.
133 أنوار التنزيل ١٧٨/٣.
134 معالم التنزيل ٢٨٢/٤.
135 نظم الدرر ٢٤٢/١٠.
136 انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢٥٨/٥.
137 الرسالة التبوكية ١٣/١.
138 انظر: المحرر الوجيز، ٢٣٠/١.
139 أخرجه ابن المبارك في الزهدص٤٧٣.
140 سير أعلام النبلاء ٦٠١/٤.
141 انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٢/٢٠، منهج القرآن في تربية الرجال، عبد الرحمن عميرة ص٩٩.
142 انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧٥/٨.
143 انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢١٤/٢.
144 انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١١٠/٢.
145 انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢١٤/٢.
146 جامع البيان ٣٧١/١٢.
147 انظر: الفوائد، ابن القيم ص١٤١.
148 في ظلال القرآن ١٩٧/١.
149 انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٨٨/٣.
150 انظر: تفسير الشعراوي ٤٥٣٨/٨.

151 انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١٤٩٩/٣.
152 الكشاف، الزمخشري ١٥٤/٢.
153 انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٣/٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٥٢/٢
154 انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٨٧/٦.
155 روضة العقلاء، ابن حبان ص٣٠.
156 انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١٢/٣
157 انظر: أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية ص٤٢ .
158 انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١٢٤/١
159 انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٣/١ .
160 انظر: المصدر السابق ٣١/٣.
161 انظر: شفاء العليل ١٠٧.
162 انظر: جامع البيان، الطبري ٤٧٣/٧.
163 مفاتيح الغيب ٤٥٨/٩.
164 انظر: الكشاف ٤٥٤/١.
165 المصدر السابق ٤٥٢/١.
166 انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥٤٤/١.
167 انظر: تفسير المراغي ١٦٢/٤.
168 انظر: المصدر السابق ١٨٠/٢٦.
169 في ظلال القرآن ٣٣٧٩/٦.
170 المصدر السابق ٣٣٧٩/٦.
171 التبيان في أقسام القرآن ص٣٠٣.
172 انظر: جامع البيان، الطبري ٣٧٣/٢.
173 انظر: تفسير القرآن العزيز ٢٧٨/٤
174 انظر: تفسير السمرقندي ٣٣٨/٣.
175 الكشاف ٣٩١/٤.
176 انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٣/١٧.
177 انظر: مفاتيح الغيب ٢٨ /١٥٠.
178 انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣٦٩/٣، محاسن التأويل، القاسمي ٣٠/٩.
179 تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٨.
180 انظر: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد الجوزو، ص٢٢٦-٢٢٧.
181 زاد المسير ٣٣٨/١.
182 انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤٩٦/١.
183 الكليات، الكفوي ٣٤/١.
184 انظر: المفردات، الراغب ص٧٦١.
185 أمراض القلوب وشفاؤها ٨.
186 إحياء علوم الدين، الغزالي ٣٣٩/٣.
187 انظر: جامع البيان، الطبري ٢٧٨/١٣.
188 انظر: تفسير الشعراوي ٤٤٧٦/٧.
189 تفسير القرآن العظيم ٥٩٠/٤
190 انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٢٧/٥.
191 أمراض القلوب وشفاؤها ٩.
192 إحياء علوم الدين ١٣/٣.
193 انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ٥٣/١.
194 الفتاوى الكبرى، ٥٠/٥.
195 انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٢٧/٥.
196 مفتاح دار السعادة ص٤٦٧.

197 انظر: القلوب وآفاتها، صلاح الدين علي ص٦٠
198 جامع البيان ٥٨/١٢.
199 انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٢٨/٩.
200 انظر: تفسير الشعراوي ٤٢٦٤/٧.
201 المحرر الوجيز، ابن عطية ١٢٧/٤.
202 المصدر السابق ١٢٧/٤ .
203 انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢٥١/٧.
204 إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين أحمد درويش ٥٩٩/٧.
205 مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣٣/٢٣.
206 انظر: تفسير المراغي ١٢٣/١٧.
207انظر: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد الجوزو، ص ١٧٨-١٨٨.
208 انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٩٠.
209 انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٢٥/٣.
210 انظر: تفسير الشعراوي ٨١٤/١٣.
211 موسوعة فقه القلوب ٦٣/٤.
212 انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٨٨.
213 جامع البيان ٧/١٢.
214 انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢١٦/٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٥٣/٣.
215 انظر: الكشاف، الزمخشري ١٣٥/٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/٩.
216 انظر: في ظلال القرآن ١٣٤٢/٣
217 انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢٣/١٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٥٥/٧.
218 مفاتيح الغيب ٣٢٣/١٤.
219 انظر: تفسير الشعراوي ٤٢٦٦/٧.
220 انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٣٠/٩.
221 انظر: جامع البيان، الطبري ٣٦٣/٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥٨/١١.
222 انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٣٧٦/٣ .
223 مجموع الفتاوى ٥٢/١٤.
224 شفاء العليل ص٩٣.
225 المصدر السابق ص٩٣
226 انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ص٩٩-١٠٠
227 انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٣٩١/٣.
228 انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤٩/١٤، روح المعاني، الألوسي ٦٠/١١.
229 انظر: مدارج السالكين ٤٦٧/١.
230 انظر: جامع البيان، الطبري ١٢٠/٢٠، تفسير المراغي ٦٨/٢١.
231 انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٣٦/١٥.
232 التحرير والتنوير ١٣٤/٢١.
233 انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٤٥.
234 انظر: روح المعاني، الألوسي ٦١/١١.
235 انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٢٢/٢١.
236 تفسير الشعراوي ١١٥٥٦/١٩.
237 انظر: في ظلال القرآن ٢٧٧٨/٥.
238 انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣٧٢/١٥.
239 انظر: تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ص٧٩١.
240 انظر: مدار السالكين، ابن القيم ٤٤٧/١.
241 انظر: جامع البيان، الطبري ١٦٩/٢٢.
242 انظر: لباب التأويل، الخازن ١٤٤/٤، التفسير المنير، الزحيلي ١٠٩/٦.

243تيسير الكريم الرحمن ص٧٨٦.
244انظر: التحرير والتنوير ١٠١/٢٦.
245انظر: الإبانة، العكبري ١٨٩/١.
246انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ص٤٢.
247النبوات، ٦٥٨/٢.
248انظر: القلوب وآفاتها، صلاح الدين علي ٩٢.
249ذم الهوى، ص١٢ .
250إعلام الموقعين ١٧٢/٤.
251الفوائد ص١٠١.
252روضة المحبين ص٤٧٩.